المعاناة والألم 02

مالك أبو حمدان



أهلاً وسهلاً بجارنا الباقي.. الألَم والوَجع!

رأينا في الجزء الأوّل أنّ "إعدام" الألم (أو الوجع) من حياتنا: وهمٌ خطير. لكن، من - أو ما - وراء هذا الوهم؟ ما هي جذوره برأينا، ومن يغذّيه منذ غابر الزّمان ورغم اختلاف المَكان؟ من أينَ يأتي هذا الوهم القديم؟ فعلاً: من أين يأتي التّوهّم بأنّه يُمكننا أن نُعدم الألم من الوجود؟ من أين يأتي هذا الوهم، ولماذا يستمرّ عبر العصور، علماً بأنّ تواجد الألم هو – على ما يبدو لنا – من قوانين الحياة الكبرى على هذه الأرض – وفي هذا العالم الظّاهر – كما رأينا؟ نرى أسباباً رئيسيّةً ثلاثةً يمكن ذكرها في هذا الإطار: (١) بُنية الذّهن بمعنى: الإنساني، أي ما نسمّيه – نحنُ – عادةً وعموماً بالعقل المفكّر-الذّهني: وهي بنية قائمة في جوهرها على الإثنينيّة

والضّدّيّة، كما على التّفكير الخطّي .فمن جهة، يخدعُك ذهنك من خلال تركـيزه على ما يراه "إيجابيّاً" بهدف تحفيزك – في المرجّح عندي – على الاسـتمرار في الحيـاة. ومن جهة ثانية، يخدعُكَ هذا الذّهنُ أيضاً: من خلال إيهامك بوجود خطـوط مسـتقيمة قادمة في حياتك (للسّبب نفسه، على الأرجح أيضـاً). يعـدُك مثلاً: بحيـاة مـع سـعادة مستمرّة، أو حياة مع رخاء مستمرّ، أو حيـاة بلا ألم إلخ.. (أو العكس "السّـلبي" في بعض الأحيان، وهذا بحثٌ آخر). والخطـوط المسـتقيمة لا وجـود لهـا، في المبـدأ، إلّا داخل عـالم الـذّهن والأفكـار والتّصـوّرات والمفـاهيم. (٢) بعض الجهـات من النّخب الـتي يهمّهـا أن يُغـرَّرَ بـكَ في هـذا المجـال. ومنهـا: بعض الحكّـام والمـروّجين الأيــديولوجيّين، الــذين يهمّهم أن تصــدّق اليوتوبيا الخاصّــة بهم (بهــدف تخــديرك والتّحكّم بك على الأرجح). ومنها أيضاً: بعض الجهات التّجاريّة والتّسويقيّة والإعلاميّة، الـتي يهمّهـا أن تُصـدّق هـذا الـوهم لتشـتريَ بعض المنتوجـات والخـدمات والـبرامج والحلقات وما إلى ذلك. (٣) بعض المدارس الفكريّة (وشبه الرّوحيّـة) الـتي تعتـبر – ربّما – أنّه من الأفضل لك أن تعيشَ في وهمٍ تخالُه جميلاً ولذيذاً، بـدل أن تعيش في واقعٍ تخالُه قبيحاً وذا معاناة. ونحن هنا بالطّبع أمام طريقة تفكير خطيرة جـدّاً: تُبعـد الإنسـان عن الحقيقـة والواقـع من جهـة، كمـا وتجعلـه – من جهـة ثانيـة – عرضـةً للمفاجآت السّـيّئة والموصِـلة إلى اليـأس والكفـر بالحيـاة ككـلّ في نهايـة المطـاف (وطبعاً إلى الانتحار في بعض الأحيان). "لماذا الألم" VS "ماذا الألم"؟ لماذا هنالك ألمٌ في هذه الحياة، ولماذا الألم هذا مكتوبٌ علينا كما رأينا؟ نتحدّثُ بالطّبع عن كـلّ أجناس وأنواع الألم التي يمكنك – ولا يمكنك – أن تتخيّلَها: آلام الجسد بما فيهـا آلام المشاعر وآلام النّفس ويمكن ضمّ المشاعر إليها أيضاً. لماذا "فُرضـت" علينـا الآلام – الجسديّة والنّفسيّة – في هذه الحياة؟ حقّاً: لماذا؟ أمّا سؤال الـ – لمـاذا، فمـا هـو بالمحبّذ ولا بالمستحبّ عند أهل المذاهب الآسيويّة في أقصى الشّـرق بشـكل عـام، ولا عند شيخ الوجوديّين الغـربيّين الأكـبر مـارتن هايـدغر (ت. ١٩٧٦ م) وأتباعـه مثلاً، كما سبق ورأينا في مقالاتٍ سالفة. فما هُوَ: هُـوَ (عنـدَهم). أي الوجـود هـو الوجـود، وبقاء السّرّ سرّاً: كافٍ في حدّ ذاته. بعبارة أخرى: علينا، حسب هـذه النّظـرة، تقبّـل الأمور كما هيَ، فما كانَ كان، ومـا لم يكنْ لم يكن. علينـا أن نخـرج – قـدر الإمكـان أقلّه – من "الحُكم الذّهني" على الوجود والموجودات، والخـروج من الـ – "لمـاذا"، قاتلة الأسرار. ولكيْ لا يغضبَ منّا إخواننـا هـؤلاء من الهنـدوس مثلاً، ومن الطّـاويّين والبوذيّين ومن الوجوديّين أجمَعين، سوف نبدأ فيما يلي بمقاربـة المسـألة، لكن من باب هو أقرب إلى الـ – ماذا من الـ – لماذا. وسنرى سويّاً كيف أنّ الـ – ماذا لطالمـا تُغني عن الـ – لماذا في بـاطن الأمـور، منصـفين بـذلك – بعض الشّـيء – أهلنـا من المـذاهب المـذكورة أعلاه (ونحن نميـلُ إلى نظـرتهم في بـاطن الأمـور ومضـمونها طبعاً، لكن ليس في كلّ أبعاد الوجود، وهذا بحثٌ آخـر أيضـاً). لمـاذا هنالـك ألمٌ في هذه الحياة، ولماذا الألم هذا مكتوبٌ علينا كما رأينا؟ نتحدّثُ بالطّبع عن كـلّ أجنـاس

وأنــواع الألم الــتي يمكنــك – ولا يمكنــك – أن تتخيّلَهــا: آلام الجســد بمــا فيهــا آلام المشاعر وآلام النّفس ويمكن ضمّ المشاعر إليها أيضاً. لماذا "فُرضـت" علينـا الآلام – الجسديّة والنّفسيّة – في هذه الحياة؟ حقّاً: لماذا؟ إنّ وجودَ (أو تواجدَ) الألم عندي لا يمكن فهمه بعمق، إلّا من خلال محاولة البدء ببحث الزّاوية الأنطولوجيّـة كالمعتـاد (والأنطولوجيا هو فرع الفلسفة المعني بـالوجود وطبيعتـه، وبمبـاحث العـدم طبعـاً). فنحن، في العالم الظّاهر: أمام ظهـورٍ للوجـود من خلال موجـودات كثـيرة. الوجـود يظهر علينا، إذن وفي هذا العالم، بمظاهر متكثّـرة. الوجـود في ظـاهره البـادي لنـا: متكثّر. ولا داعيَ للولوج في إثبات ذلـك: ظاهريّـاً أقلّـه، الوجـود متكثّـر. ووجـود – أو تواجد – الكثرة يعني وجود الإثنينيّة، بل أتبنّى الاعتقاد بأنّه يقوم عليها. فـأوّل الكـثرة ظهور الإثنَين (٢) بعد الواحد (١). وظهور الإثنَين، كما يبدو لنا من خلال مراقبـة هـذا العالم الظّـاهر، يقـوم – في جـوهره وبرأينـا – على ظهـور الضـدّ في مقابـل الضـدّ. فالواحد يظهـر في مقابـل الكثـير، والأبيض في مقابـل الأسـود، والبعيـد في مقابـل القريب، والثّابت في مقابل المتغيّر، والعالي في مقابل المنخفض.. إلى آخر القائمة التي لا تنتهي على الأرجح. وجميع الموجودات تَظهر ما بين الضّدّين المتطـرّفين من كلّ زوج (وعدد الأزواج لا متناهٍ طبعـاً): كـالألوان – على تنوّعهـا اللّا-متنـاه – مـا بين الأبيض والأسود.. وما إلى ذلك. المهم، ومع التّبسيط: لا يلزمك تفكّرٌ وتأمّلٌ عظيمَين حتّى تعيَ بأنّـك في وجـود يظهـر عليـك من خلال مظـاهر متكثّـرة. وبـأنّ الكـثرة الظّاهرة هذه تقومُ – في جوهرها – على الإثنينيّة الضّديّة. مع التّبسيط الشّـديد لكن البليغ إن شئت: فَكأنّما ظهـرت المظـاهر – جميعهـا – من خلال أضـدادها. خـذ مثلاً: الوحدة في مقابل الكثرة. هل يمكن إدراك وجود "الوحدة" إلّا من خلال مقابلته مـع وجود "الكثرة"، والعكس؟ حتّى الكثرة ذاتها لا يُمكن تخيّلها إلّا من خلال المقابلة مع الوحدة (والعكس صحيح)! ولذلك قلنا إنّنا نعتقدُ بـأنّ الكـثرة – في جوهرهـا – تقـوم على الإثنينيّة والضّديّة معـاً. القضـيّة إذن عميقـة جـدّاً. هـذا على مسـتوى.. الوجـود. ولكن، لاحظ كيف أنّ مسألة الوجود تختلط تلقائيّاً – بل وبديهيّاً – مع مسـألة الإدراك (وبالتّالي المعرفة – أو الأبستمولوجيا) في هذه القضيّة. فمن مسـألة وجـود الوحـدة قفزنا – من حيث لا نشعر وتلقائيّاً – إلى مسألة إدراك الوحدة (في مقابـل الكـثرة). إذن، يمكن القول إنّنا أمـام قضـيّة قـد تكـون مرتبطـةً بالـذّات الـتي تريـد أن تُـدرك مظاهر الوجود، لا بالوجود نفسه ومظاهر الوجود نفسها. وكأنّ القضـيّة هي معرفيّـة في جوهرها لا وجوديّة. مـاذا يعـني كـلّ هـذا الكلام شـبه المشـفّر والملغّـز؟ أُطمئن القارئ العزيز إلى أنّ المصطلحات القريبة من الفلسفة لا تهدف إلى التّشـفير، بـل إلى الدّقّة في التّعبير. والقضيّة سهلة جـدّاً، ويمكن اختصـارها – بعباراتنـا – كمـا يلي (إن شاء الله تعالى): يبدو أنّنا عـالقون – إلى الآن – في عـالم يقـوم على الأضـداد. وبالتّـالي، فلا يُمكن "لوجـود" الخـير فيـه أن يكـون إلّا من خلال "وجـود" الشّـرّ، والعكس صـحيح. وكـذلك بالنّسـبة إلى النّـور والظّلمـة، والحسـن والقَـبيح، والبعيـد

والقريب إلخ.. وكذلك بالنّسبة إلى شعور اللّذّة من جهة / وشعور الألم من جهة أخرى. فكأنّما هنالك من أوجد الألم ليُوجد اللّذّة، والعكس صحيح! ومن هنا يمكننا الادّعاء بأنّنا أمام "الـ – ماذا" التي تجعل "الـ – لماذا" بديهيّة. فتفكّرْ وتأمّلْ معي! ولكن، في الوقت عينه: الأمر مرتبطٌ على ما يبدو، في شقّه الثّاني أعلاه، بإدراك هذه الأضداد. ماذا لو أنّ ذهني – أو دماغي – هو الذي يُدرك الأضداد بالأضداد، في حين أنّ الحقيقة في مكانٍ آخر؟ أي: ماذا لو أنّ هذه الأضداد ليست موجودةً إلّا في ذهني، كأداة لإدراك الواقع؟ والدّليل على ذلك هو أنّ مقاربة "وجود الأضداد" تؤدّي بشكل شبه تلقائي – بل وبديهيّ ربّما – إلى مقاربة "إدراك الأضداد" كما رأينا. ماذا لو أنّ الأضداد غير موجودة في ذواتها أصلاً؟ ماذا لو أنّ القضيّة هي مجرّد قضيّة وعيٍ في جوهرها – لا قضيّة "وجود خارجي"؟ هذا ما نعتقده في باطن الأمور، دون إغفال أهمّيّة الأخذ بالأسباب في قضيّة معالجة بعض الآلام التي تدلّ على أذىً معيّن أو خللٍ معيّن في الجسم أو في النّفس، وهذا بحثٌ آخر. الألم: حقيقةٌ أم وهمٌ.. أم أداةُ وجود؟ من هنا، يمكن القول إنّ تواجد (لا وجود) الألم هي مسألة متعلّقة بجوهر هذا العالم الظّاهر. فالألم وأخواته (من الأرزاء والأدران والأسقام والمصائب والشّرور والعياذ بالله): هدفه، على الأرجح، وكما يبدو لنا، أن يُعرّفك على (أو بـ -) شيء "آخر"، لا على (أو بـ -) "نفسه" بالضّرورة. مع التّبسيط المدروس: هدف "السّلبي" أن يُعرّفك على "الإيجابي"، والعكس صحيح. لذلك، فمن الخطأ الجسيم أن نتوهّم بإمكانية انعدام السّلبي لمصلحة الإيجابي في هذا العالم الظّاهر (أو العكس)، وبشكل مستمرّ ونهائي. ولذلك أيضاً، وكما رأينا، فعين الحكمة يكمن بلا شكّ: في التّرفّع عن الإثنين والضّدّين معاً. هل قلت: هناك مَنْ يريد أن يُريَنا ضدّ الألم بالألم؟ مَنْ هُو هذا الـ – مَنْ؟ هل هو "الوجود الواعي" الذي يُسمّى عندَ البعضِ بـ"هُو" أو بـ"الله" عادةً؟ لكن كيف يقبل إلهٌ – ربٌّ يقال عنه بأنّه ذو خيرٍ مُطلق: كيف يقبلُ أن تُؤلَمَ وتُعذَّبَ وتُظلَمَ أنفسٌ بريئةٌ غيرُ مذنبةٍ كأنفس الأطفال مثلاً؟ على طريقة بعض الملاحدة والمتشكّكين المعاصرين، وهُم كُثر: كيف يمكن تبرير تواجد الألم – المعاناة من جهة، والشّرّ من جهة أخرى – في مقابل وجود إلهٍ مُطلق الخير والطّيبة والرّحمة (والمحبّة)؟ إنّه سؤال الثّيوديسيا الشّهير العظيم، والذي يجرّنا إليه – حتماً – هذا النّقاش حول تواجد الألم معنا في هذا الحياة. إنّه الانتقال البيّنُ من عالم "ماذا" إلى عالم "لماذا" في هذا المجال، وبشكل أوضح..